بيان نويهض الحوت*

على أجنحة الذاكرة:
"شميدت" زهرة المدارس على روابي القدس

ليست الذاكرة الحية هي ما نتذكره من ماضينا بلا جهد، بل هي ما نساهم نحن في الحفاظ عليه. في تعريف الذاكرة "أنها قوة نفسية تحفظ الأشياء في الذهن وتحضرها للعقل عند الاقتضاء." وهي أيضاً "قدرة عقلية على تذكّر بعض الأشياء"، ومن تلك الأشياء "ذاكرة الوجوه" أو "ذاكرة الأماكن" مثلاً. وحين يقال "مطبوع في الذاكرة"، فذاك ما لا يُنسى كذكريات الطفولة أو الحداثة. غير أن لأجنحة الذاكرة معنى آخر يضاف إلى هذه المعاني، فهي وإن تكن بطبيعتها نابعة من الذاكرة المختزنة، غير أنها تلك الأجزاء منها التي ما اكتفت بالعيش في أعماق الإنسان، بل تعايشت معه حتى أصبحت بعضاً من تكوينه العقلي والنفسي، وكأنها أضحت لها أجنحة تساعد على انتشارها.

فلسطين وطن لا تُحارَب هويته وتاريخه وأرضه وشعبه فحسب، بل أيضاً ذاكرة أبنائه جماعات وأفراداً، ولهذا كان للتاريخ الشفوي الفلسطيني أهمية تفوق أهميته لدى الكثير من الشعوب. وما العنوان "على أجنحة الذاكرة" سوى محاولة لتكريس أهمية الذاكرة الفردية التي آن لها أن تنطلق لتنقل نبض الحياة لهذه الفئة أو تلك، أو لهذه القرية أو تلك.

تحكي هذه الصفحات عن نبض الحياة في مدرسة واحدة من مدارس القدس، وهي "شميدت" الألمانية، أول مدرسة للإناث تعود نشأتها إلى القرن التاسع عشر.

***

هناك حادثة لا أنساها من طفولتي، وأرى فيها نفسي وقد أمسكتْ بيدي أختي نورا وقادتني إلى غرفة مليئة بالمقاعد الصغيرة، ورأيت ثلاث أو أربع صغيرات من عمري يجلسن على مقاعد متفرقة. وقالت لي إن هذه هي غرفة صفي، وسوف تمتلئ الغرفة بعد قليل بالتلميذات وتأتي المعلمة، وقالت لي أيضاً أنها سوف تعود إليّ لتراني بعد أن يدق الجرس. وامتلأت الغرفة فعلاً ودخلت المعلمة، وكانت تلك هي ساعتي الأولى في صف الكِنْدِر غارْتِن (الروضة) في مدرسة "شميدت" الألمانية، في صباح يوم

* مؤرخة فلسطينية.

تشريني من سنة ١٩٤١.

هكذا وجدت نفسي في مكان لا أعرف فيه أحداً فانفجرت بالبكاء، وتلفّت الجميع نحوي. قالت لي المعلمة: "لماذا تبكين يا صغيرة؟"... "أختي تركتني هنا... وأنا أريد أختي." سألتني: "مَن أختك وأين هي؟"، قلت: "أختي نورا. هي ـ وأشرقتُ بالبكاء ـ في صف الكبار." قالت: "عندما يدق الجرس سوف ترين أختك، ونحن معك الآن، وسوف تتعلمين أغنية حلوة..." وراح بكائي يخف وأنا أستمع إلى المعلمة التي أوحى إليّ صوتها بالحنان، غير أن ما أثار انتباهي هو أن التلميذات جميعاً كن جالسات في مقاعدهن بهدوء، وأنا وحدي مَن بكت من بينهن. شعرت حقاً بالخجل.

أنّى لي أن أعرف في ذلك السن، وأنا في الرابعة من عمري، بأن أجمل ذكرياتي سوف تكون بين جدران هذه المدرسة وفي ملعبها الرحب. وأنى لي أن أُدرك بأنه سوف يأتي يوم أُحرم فيه نهائياً من مدرستي ومن بيتي ومن مدينتي؟

"مدرسة شميدت للبنات" (Schmidt's Girls School) في القدس، أو "كلية شميدت للبنات" (Schmidt's Girls College) كما كانت تسمى أيضاً لكونها تمنح طالباتها شهادة في التربية والتعليم بعد الشهادة الثانوية، من أجمل المدارس التي عرفتها أو زرتها في حياتي. كان لها مدخل واحد من بوابة حديدية تقع في منتصف السور تقريباً، وهذا السور يحدّها من جهة واحدة هي الجهة المجاورة لمنطقة مأمن الله (ماميلاّ). وأذكر رحلتنا اليومية القصيرة كل صباح في باص المدرسة وهو يعرج في أحياء البقعة الفوقا والبقعة التحتا والطالبية، ثم يتهادى في شارع الملك جورج، ومنه ينعطف يميناً ويدخل شارع مدرستنا. نحن كنا نعتز بموقع مدرستنا وأبنيتها التي كانت الأجمل في الشارع كله.

وسألت يوماً والدي: "كيف تقول لنا المعلمة إن مدرستنا بُنيت بالقرب من شارع يافا، بينما هي أقرب إلى شارع الملك جورج؟" وضحك والدي وقال: "وكيف تعرفين المسافات يا شاطرة؟" قلت: "من باص المدرسة، فبالأمس أوصل السائق طالبة جديدة إلى شارع يافا..." فقال: "يوم بُنيت مدرستك لم يكن شارع الملك جورج قد وُجد بعد، ولا كان الإنجليز. كانت القدس في العهد العثماني، وقد أخذت الأبنية الجديدة ترتفع خارج البلدة القديمة منذ القرن الماضي، فكان يومذاك شارع يافا هو الأقرب إلى مدرستك."

كانت العادة أن بوابة المدرسة سرعان ما تقفل بعد دخول الطالبات أو الزوار، وهي بوابة حديدية جميلة الشكل يحيط بها من الجانبين عمودان من الحجر الجميل؛ فما إن يدخل الزائر حتى يرى أمامه مساحة واسعة جداً مكشوفة يحيط بها السور من جهة المدخل، وثلاثة أبنية من الجهات الثلاث الأُخرى. وهكذا، فهو يرى أمامه ممراً طويلاً، وهو الممر الفاصل بين الملعب والبستان، فيرى عن يساره بستاناً رائعاً ممتداً على طول الممر بأزهاره وأشجاره وألوانه الخضراء، ومن بعده المبنى الجميل الذي تقع واجهته المستطيلة الكبرى على امتداد البستان، وهو من أقدم أبنية القدس وأجملها من القرن

صورة لبوابة المدرسة، وقد يقال هل من المهم نشر البوابة؟ المهم هو أن البوابة أزيلت، وأزيل السور كاملاً، ولم تُبقِ "السلطات الكريمة" إلاّ على عمودَي الحجر، وكذلك أتلفت البستان وغيرت معالم الملعب، وكل هذا لا علاقة لنا به، لكننا نراه على صفحة صُوَر موقع غوغل.

المصدر: صُوَر محرك البحث غوغل.

التاسع عشر، وقد بُني في سنة ١٨٨٦. وفي أيامنا كان مسكناً للراهبات، كما كان يضم قسماً للطالبات الداخليات. وأمّا عن يمينه فيرى الزائر الملعب الكبير ويليه المبنى الآخر الذي تمتد واجهته على امتداد الملعب، وقد تم بناؤه في أوائل القرن العشرين عندما دعت الحاجة إلى توسيع المدرسة، وهو يضم جميع الصفوف، وكنا نسميه "مبنى التدريس" أو "مبنى الصفوف".

ويبقى أخيراً مكان أثير لدى الطالبات جميعاً، وهو مبنى مستقل من طابق أرضي تضم جدرانه قاعة الاحتفالات الكبرى، ويقع في نهاية الملعب، أي مقابل السور، ويمتد طولياً على عرض الملعب وأكثر، وفي هذه القاعة الفسيحة كانت تجري الحفلات في نهاية السنة. وأمّا بالنسبة لنا ـ نحن الطالبات الخارجيات ـ فكنّا ندخل هذه القاعة كل يوم ظهراً لتناول الغداء ثم ننتشر في الملعب الرحب.

في كل صباح وعلى أرض الملعب تجتمع طالبات المدرسة في خطوط طولية مواجهة لمبنى التدريس، ويتوالى دخولنا إلى صفوفنا بالتتابع، فيدخل كل صف بانتظام مع معلمته إلى هذا المبنى الكبير حيث تتوزع الصفوف الابتدائية والثانوية في طابقين. وكان الملعب أعلى ارتفاعاً من الطابق الأرضي لمبنى التدريس بدرجات معدودة، فكنّا نحن الصغيرات ننزل هذه الدرجات بوقار، ثم نجتاز الممر الفاصل بين الملعب ومبنى الصفوف حيث عشت سنوات من أحلى سنوات العمر.

الطابق الأرضي كان يتميز بقاعة الطعام للطالبات الداخليات، وبالقرب من هذه القاعة أروع مكان عشقته في المدرسة، فهو المكان المخصص لبيع القرطاسية. كانت الراهبة المسؤولة عن المبيعات تفتح النافذة المطلة على الممر الخارجي خلال الفرص لنشتري منها ما نشاء. هنا أجمل الدفاتر والأقلام وألوان الرسم وكل ما يتعلق بالكتابة. أحببتُ هذا المكان وبقيت طوال عمري أسعد بشراء القرطاسية حتى لو لم أكن بحاجة إليها.

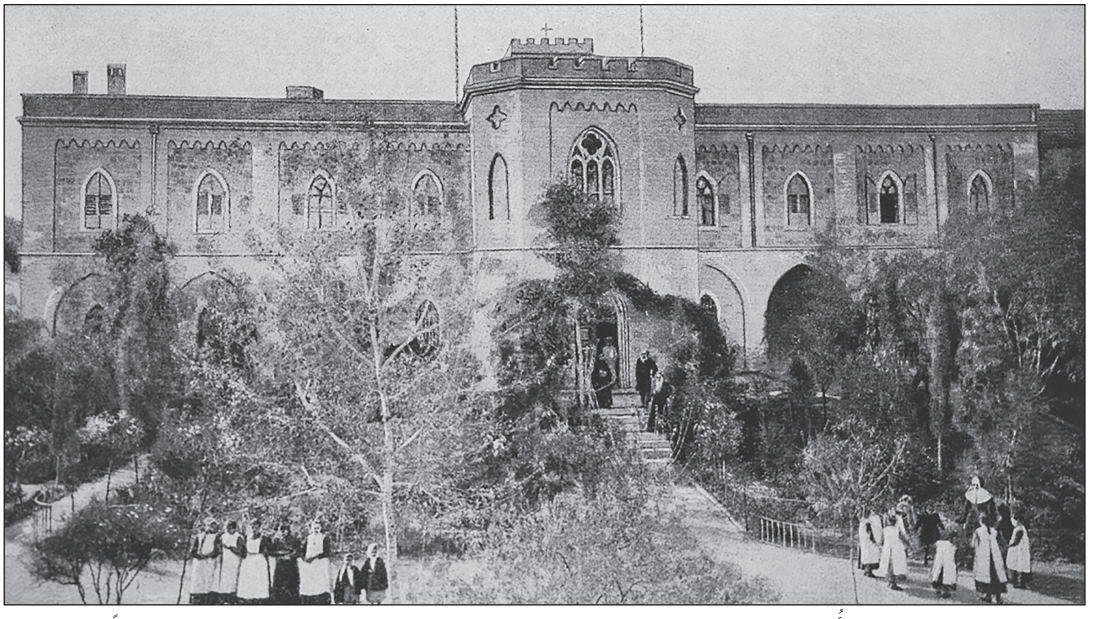

مبنى المدرسة في صورة أُخذت سنة ١٨٨٧، بعد عام واحد فقط من بنائها، وكانت يومذاك تحتل قسماً فقط من هذا المبنى، ثم أخذته الإدارة كاملاً، وبنت مبنيين آخرين مع الزمن.
المصدر: الموقع الإلكتروني للمدرسة الألمانية (اليوم).

كنت في الصف الثاني الابتدائي يوم دخلت معلمة الحساب، مسز خوري، إلى الصف في بدء العام الدراسي، وكانت معلمة جديدة، وفوجئت بها تقول لي وهي تقرأ الأسماء في أول الدرس: "أنت.. أنت نويهض، هل تعرفين خلدون نويهض الطالب في كلية الأُمّة؟" قلت باعتزاز: "خلدون أخوي". فابتسمت المعلمة وهي تقول: "أنا علّمته في كلية الأُمّة وكان من أوائل الطلاب، أرجو أن تكوني مجتهدة مثله. سلّمي عليه." ولم أصدق حتى نزلنا من باص المدرسة أنا وأختي نورا الكبرى وسوسن وهي تكبرني بعامين، وركضت لأصعد الدرج العالي قبلهما، وكان خلدون، وهو الأكبر بيننا، ينتظرنا في ذلك اليوم الدراسي الأول على أعلى الدرج، فقلت له وأنا أصعد وألهث: "مسز خوري بتسلم عليك... وبتقوللي... إن شا الله تكوني شاطرة مثل أخوك...". وكانت نتيجة هذا السلام أن اعتنى خلدون بمتابعة دروسي في الحساب حتى بتّ ـ كما أرادت المعلمة ـ من الأوائل.

وأذكر في صف أعلى، مس حنّوش، وهي معلمة اللغة العربية، وكانت جدية وبارعة في التعليم، لكنها لا تضحك إلاّ نادراً، وقد أحببتها لأنني كنت أحب دروس اللغة العربية، وكنت أحب دروس الإنجليزية أيضاً، لكنني لا أذكر للأسف أيّاً من معلمات اللغة الإنجليزية. وأمّا اللغة الألمانية فلم يكن يُسمح بتدريسها في أيامنا في عهد الانتداب.

الراهبات كُنّ يُدرّسْنَ الصفوف العليا، لكنني أتذكر أسماء عدد منهن، كما أتذكر وجوههن وأصواتهن نظراً لحضورهن في الملعب كل صباح وفي العديد من المناسبات. وأبدأ بالمديرة وهي سيستر إيليا (Sister Elia)[1] وكانت صارمة وصوتها دائماً يرتفع في الملعب، وأمّا رئيس المدرسة، وهو الأب زونن (Father Sonnen)، فكان هادئاً جداً، ونادراً ما كنا نراه، لكنني لا أنساه، ولا أنسى الراهبات سيستر أنجلينا (Sister Angelina)، وسيستر غيدا (Sister Ghida)، وسيستر ريناتا (Sister Renata)، وسيستر لودميلا (Sister Ludmilla)، وأمّا بين الرهبان القلائل فالأوسع شهرة كان الأب كيرلز (Father Curles)، وهو أستاذ الرسم الذي أقبلت الطالبات على تعلم الرسم بشوق بسبب براعته في الفن ودماثة شخصيته.

كنت في الصف الرابع الابتدائي وسوسن في الخامس يوم عدنا إلى البيت وكل منا تحمل شهادة الفصل الأول من العام الدراسي. وكان عدد الفصول السنوية ثلاثة. وكلانا عدنا بنتيجة سيئة، بل وأعترف بأنه لا يوجد أسوأ منها. كان النظام يقضي بترتيب الدرجات بدءاً من الطالبة الأولى في الصف لكنه لا ينتهي بالطالبة الأخيرة كما يتوقع، ذلك بأن الطالبات الأواخر من ثلاث أو أربع طالبات لم تكن الإدارة تضع لهن درجات، وربما كان هذا مراعاة للناحية النفسية، غير أن حرمانهن من أية درجة كان يعني من دون أي ريب أنهن في قاع السلم.

فتحت الماما المغلفين وقرأت العلامات، ولم يكن لأي منا درجة معلومة، فبان على وجهها الغضب، وقالت: "ما هذه المفاجأة؟ ماذا سأقول للبابا حين يعود. اسمعاني جيداً. هذه العلامات يجب أن تتغير في الفصل الثاني. يجب. واللعب مع بنات الجيران ممنوع حتى تتعدل النتائج." قالت ذلك بحزم.

أنقذنا أخي خلدون. كان كل يوم يطّلع على واجباتنا المدرسية، ويقول لي مثلاً: أمامك دراسة لساعتين، وربما أكثر أو أقل. وكان يعود إلينا بين الحين والحين فيجيب على أسئلتنا، وبعد أن يتأكد من أننا درسنا جيداً كان يطلق سراحنا. وما كان ممكناً لي أن أتكهن بنتيجة الفصل الثاني، غير أنني من تشجيع المعلمات كنت موقنة من النجاح. وأخذنا العلامات وعدنا إلى البيت. كان ترتيبي في الصف تحسن كثيراً فأصبحت درجتي الخامسة عشرة من نحو ثلاثين طالبة. وكذلك سوسن تقدمت لكنني لا أذكر درجتها. واستمر خلدون على عادته معنا من دون انقطاع. وانتهى الفصل الثالث، وكان يوم تسلمت شهادة هذا الفصل الأخير من أكثر

أيامي سعادة. أمعقول هذا؟ أنا أصبحت السابعة في الصف، وهذا على الرغم من علامات الفصل الأول المتدنية. وهكذا... عرفت ماذا يعني النجاح في الحياة.

وأعقب نجاحنا السماحُ لنا باللعب في فرصة الصيف مع بنات الجيران كما نشاء. كان بيتنا في البقعة الفوقا يقع على الشارع الموازي لسكة الحديد، فكان هذا الشارع الذي يفصل بين بيوتنا وبين سكة الحديد هو الملعب الرئيسي لنا، فما كان شارعنا شارعاً عاماً تجوبه الباصات، حتى باص المدرسة كنا ننتظره على الجانب الآخر من سكة الحديد. ولم يكن يمر بشارعنا سوى سيارات معدودة في اليوم، ولن أنسى أن أذكر أن شارعنا كان لا يزال شارعاً ترابياً، وما كان غياب الأسفلت ليضيرنا، بل على العكس، فقد كنا سعداء بذلك حتى لا يتسبب لنا الأسفلت بكسور إن وقعنا عليه.

كانت أبرز ألعابنا لعبة الإكس، وهناك أكثر من شكل لهذه اللعبة، فكنا نرسم الشكل الذي نريد على أرض صلبة في حديقة إحدانا بالطبشور، ونأتي بحجر مسطح، والشاطرة التي تتمكن من نقل الحجر بين المربعات وغيرها من الأشكال على قدم واحدة بلا خطأ. وكنا نلعب أيضاً لعبة الدحديلة، وهي كناية عن دولاب حديدي يشبه دولاب الهيلا هوب، كنا نركض على الشارع ونحن نحركه إلى جانبنا ليستمر في الدحدلة، والشاطرة التي تستمر في الركض والدحدلة أطول من غيرها طبعاً.

أمّا أُم الألعاب فكانت الطائرات الورقية التي كنا نصنعها نحن بأيدينا، ثم نربطها بخيط متين طويل نسحبه من كرة الخيطان التي نمسك بها، فكنّا نركض والطائرة التي صنعناها من ورق ترتفع، وكلما كانت ترتفع أكثر، كنا نمدها بالخيط حتى يصل إلى نهايته وتغدو الطائرة في الأعالي، وتلك كانت لعبتنا المفضلة. وكنا نشعر بالسعادة حين يمر القطار وطائرتنا في الهواء، فيصفق الركاب لنا ويحيّونا من نوافذ القطار. لكننا كثيراً ما كنا نستريح من اللعب وليس لنا من حديث سوى عن السنة القادمة: هل حقاً سوف يترك الإنجليز فلسطين بعد عام كما يُقال؟ هل حقاً سينتهي الانتداب؟

جاء تشرين الأول/أكتوبر من سنة ١٩٤٧ وعدنا إلى المدارس.

وكنت أصبحت في الصف الخامس الابتدائي، وأصبحت أعرف معنى النجاح لكنني كنت أهدف إلى التفوق. وكان من المتوقع في الشهرين الأولين بين بنات الصف جميعاً أنني من الخمسة الأوائل، وباتت المنافسة شديدة بيننا نحن الخمسة. كنت حتماً سوف أغضب لو حصلنا على علامات الفصل الأول واكتشفت أنني الخامسة، فأنا كنت أتوقع أفضل من ذلك، لكن ذلك الأفضل لم يحصل أبداً، فقرار تقسيم فلسطين صدر عن الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر من تلك السنة، وسرعان ما أعقبته ثورة في البلاد رفضاً للقرار الجائر، وسرعان ما أقفلت المدارس أبوابها والفصل الخريفي الأول لم يكن قد انتهى بعد.

اعتقدنا في البداية أن المدارس لا بد وأن تعود، لكن كيف يمكن لها أن تعود إلى فتح أبوابها والثورة في كل أنحاء فلسطين؟ ويحزنني أن أقول إننا لم نودّع مدرستنا، فنحن عندما غادرناها في اليوم الأخير ما كان ممكناً لنا أن نعرف أنه اليوم الأخير.

حاولت بداية أن أستمر في الدراسة بمفردي، وكنا في تلك السنة أصبحنا ندرس معظم الدروس بالإنجليزية، كالحساب والجغرافيا والتاريخ وعلم النبات، وقد أحببت مادة علم النبات كثيراً، وكانت مادة جديدة، فاشترى لي أخي في عيد ميلادي كتاباً بالإنجليزية يحتوي على عشرات الصور بالألوان للأشجار والنباتات والأزهار المتنوعة، وكان بإمكاني متابعة الشروحات مع الصور، وكنت أحرص على حمل الكتاب معي إلى المدرسة وأنا أتباهى به. وجاءتني يوماً زميلتي نيللي ألبينا، وكانت الأولى في الصف، وهي هادئة بطبعها ومهذبة جداً، فطلبت مني أن تستعير كتابي هذا. ترددت

قليلاً بيني وبين نفسي، لكن نظرة نيللي التي كانت تحمل كل معاني الرجاء دعتني إلى أن أقبل إعارتها الكتاب، غير أنني طلبت منها أن تعيده لي في الأسبوع المقبل. فرحت نيللي ووعدتني. غير أننا ما التقينا أبداً بعد ذلك.

لم أشعر باليأس من العودة إلى المدرسة إلاّ حين ابتدأت دار الإذاعة الفلسطينية تقدم عدداً من الدروس عبر برامج إذاعية خاصة، ولا أزال أذكر عنوان درس في التاريخ: "خوفو ابن النيل وقبره". وفي عدد لا يحصى من المرات مر ببالي كتابي المفضل، وكم قلت لنفسي: ليتني ما أعرته لنيللي. غير أني بعد أن اكتشفت أننا أصبحنا مهاجرين كغيرنا، أو كما يُقال "لاجئون"، شكرت الله على أنه ألهمني أن أعطيها الكتاب، فلعله ما يزال معها بأمان، وأمّا لو رفضت إعطاءه لها، لكان مصير كتابي الغالي أن يبقى في بيتنا في القدس، وأن يحمله الصهاينة كما حملوا مكتبة أبي بكاملها وكانت تربو على الثلاثة آلاف كتاب، وكما حملوا أيضاً رفوف كتبنا ـ نحن الأولاد ـ المنتشرة في أنحاء البيت. لكن مهلاً... إذ يبدو أنه عليّ أن أعتذر هنا، فكلمة "حملوا" لا تعبّر عن الحقيقة، بل يجب أن تكون "سرقوا".

ويبقى السؤال: هل نحن غادرنا القدس فقط لقضاء بضعة أسابيع أو بضعة أشهر على أن نعود حتماً في آخر الصيف إلى قدسنا وبيتنا ومدرستنا؟ أم نحن هاجرنا كغيرنا ونحن لا ندري؟ حقاً... ماذا جرى؟

كان خالي نصري سليم يقيم في عمّان، وقد جاءنا في أكثر من زيارة كي يقنع والدي بالانتقال إلى عمّان، ولو مؤقتاً، لكن والدي كان يرفض. وأذكر ما قاله الخال نصري في آخر زيارة: "يا أبو خلدون، لم تعد هناك بيوت للإيجار في عمّان، لكنني وجدت لكم بيتاً كبيراً في الزرقاء وهو واسع جداً، ويسع مكتبتك كلها ومكتبة المحاماة أيضاً، والأردن أقرب البلدان إلى فلسطين، فعندما تستقر الأوضاع تعود إلى القدس." غير أن والدي استمر على موقفه الرافض، وهو فعلاً لم يغادر القدس. غير أنه بإلحاح من الأهل في لبنان ومن أمي أيضاً اقتنع أخيراً بأن يرسلنا نحن ـ أمي وأخواتي وأنا ـ إلى رأس المتن، قريته الوادعة في أحضان الصنوبر. ومع إصراره على البقاء في القدس، بقي معه أخي خلدون وابن عمتي عادل، وهو مَن كان بمثابة أخ لنا. وكان خلدون قد أوصلنا إلى دمشق في السادس والعشرين من نيسان/أبريل، فبقينا أربعة أيام في منزل الخالة أنيسة، ثم أوصلنا في الأول من أيار/مايو إلى رأس المتن، وقد وصلناها عند الغروب، ثم عاد في فجر اليوم التالي، أي فجر الثاني من أيار/مايو، إلى القدس.

وانتهى الصيف ولم نعد إلى قدسنا. بقينا نحن ثلاثة أعوام في لبنان، وخلالها درست مع أخواتي في مدرسة داخلية في الشويفات، وكان الوالد في تلك السنوات ينتقل بين عمّان ورام الله، وأمّا بعد أن استقر في عمّان فقد عدنا واجتمعنا معاً مرة ثانية كعائلة، وكان ذلك في سنة ١٩٥١، فأكملت دراسة المرحلة الثانوية في مدرسة الملكة زين الشرف، ثم انتقلت إلى كلية دار المعلمات في رام الله. وكانت الكلية الوحيدة للإناث يومذاك في الأردن، وقد شُيدت بعد وحدة الضفتين بأعوام قليلة، وكانت تستقبل الطالبات من الضفتين الغربية والشرقية.

العامان اللذان عشتهما في رام الله في منتصف الخمسينيات كانا فرصة ذهبية لي كي أتعرّف عن كثب على مدن الضفة الغربية وقراها، وعلى ناسها وعاداتها وأساليب عيشها. وكنت أختار سريري بالقرب من النافذة التي تطل على القدس، وأرى الأضواء المشعة منها كل ليلة، فيغمرني الحنين وأنا أتساءل: ألا يُعقل أن يكون أحد الأضواء البعيدة آتياً من بيتي؟ وكنت أعلم بأن البيت أصبح محتلاً من اليهود، لكن مَن هم هؤلاء المحتلون؟ أهم صهاينة؟ ومن أية فئة؟ أم هم من اليهود الذين غرّر بهم الصهاينة المغتصبون، إذ جاؤوا بهم إلى بلادنا وقد أوهموهم بأنها بلادهم، غير أن هؤلاء القادمين سرعان ما وجدوا أنفسهم يسكنون منازل تمتلئ

بالأثاث والصور العائلية. كم سمعنا عن الذين تحولوا من هؤلاء إلى صهاينة بامتياز، وكم سمعنا عن الذين استمروا يشعرون بالحنين إلى أوطانهم. أمّا حنيني أنا إلى وطني فكان مدعاة لي كي أعتقد بأن كل فلسطيني هو لاجئ، وأكاد أقول كل عربي، أليست فلسطين هي المحور وملهمة القصائد؟ غير أنني ما عرفت معنى اللجوء الحقيقي إلاّ ذات يوم من سنتي الأولى في كلية دار المعلمات.

دخلت مديرة الكلية، مس أولغا وهبة، الصف ومعها ثلاثة من موظفي وكالة الأونروا، ومن دون مقدمات قالت المديرة بنبرتها الجافة: "أطلب من الطالبات اللاجئات أن يقفن." في اللحظة الأولى أثارتني كلمة "اللاجئات" من دون أي ذكر للهوية الوطنية، وكأن مس وهبة تنطق باسم هيئة الأمم التي تغفل عمداً كلمة "الفلسطينيين" مكتفية بكلمة "اللاجئين".

ومع ذلك وقفت، وفي تصوري أن الجميع سوف يقف ما عدا الزميلات الأردنيات من إربد أو السلط أو عمّان أو مادبا، أي أنني تصورت أن جميع الفلسطينيات سوف يقفن حتماً، لكنني فوجئت بأنه لم يقف معي سوى أربع زميلات، بينما بقيت الأكثرية مستريحة جداً في أماكنها. وشد ما غضبت وأنا أرى سميرة نسيبة وهي من أعز صديقاتي، ومن القدس أيضاً، ما زالت جالسة وكأن الأمر لا يعنيها. ما هذا الذي يجري؟ يا رب العباد، أكنتُ أنا وحدي الغبية؟ كان واضحاً أن الكل من حولي يعرف أصول اللعبة، ويعرف ما معنى "لاجئون" إلاّ أنا. اللواتي وقفن معي كنّ زميلتين من يافا وزميلة من الرملة وأُخرى من حي الطالبية في القدس، وأنا الخامسة بينهن من حي البقعة الفوقا. أمّا المقدسيات من داخل القدس القديمة أو حي الشيخ جراح فلم يقفن، وكذلك بنات نابلس أو الخليل أو رام الله أو بيت لحم.

أنا ذهبت إلى الكلية لأدرس علم التربية، فوجدت نفسي أبرع في دروس التربية وأصول التدريس، وكنت الأولى في السنتين الأولى والثانية، لكنه من الواضح أنني لم أكن أعرف درس الأبجدية في تاريخ شعبي؛ فمَن هم اللاجئون حقاً؟ وسؤالي ليس قانونياً بل فلسطينياً.

في يوم ربيعي جاءتني زميلة في دار المعلمات لتقول لي: "هناك زائرتان تسألان عنك." هبطت مسرعة إلى الدور الأول لأجد عايدة وبوران الخضراء، وهما ابنتا خالتي، ولم يكن لنا في فلسطين كلها من أقرباء غير عائلة خالتي أنيسة سليم والعم صبحي الخضراء، ولم يكن منزل خالتي في حي النمامرة ليبعد كثيراً عن منزلنا. فاجأتني الزيارة وأسعدتني، فعائلة العم صبحي كانت قد غادرت القدس بعد أن تم تعيينه ممثل فلسطين في اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية، ومقرها في دمشق. ولا أنسى صباح يوم بارد وقفنا فيه على الشرفة في انتظار خالتي وعائلتها، وفي نحو التاسعة توقفت أمام منزلنا سيارة أجرة كبيرة ونزلت منها خالتي وأولادها عايدة وبوران وفيصل، وأمّا سلمى فكانت قد تزوجت وأصبحت أماً وانتقلت إلى الخارج بحكم عمل زوجها برهان الجيوسي، وأمّا العم صبحي فكان قد غادر إلى دمشق منذ صدر تعيينه.

تناولنا الفطور معاً ثم كان الوداع، ونزلتُ معهم إلى السيارة للوداع الأخير، وأمسكت بيد خالتي فأنا كنت أحبها كثيراً وآلمني فراقها، وكانت بوران تمشي بقربي أيضاً، فخطر ببالي أن أشد معطفها كي تلتفت إليّ، فأسألها بصوت منخفض لا تسمعه خالتي عمّن تركوا في المنزل من أقربائهم ليرعاه، فنحن كنا نعرف من أهل الحي عمّا يحدث أحياناً لبيوت غادرها ساكنوها، لكنني لا أدري لماذا أحجمت عن السؤال. نحن حقاً كنا نمشي جميعاً معاً، غير أن كلاً منا كان في عالم منفرد. وما إن اجتزنا الحديقة ووصلنا إلى الشارع وأنا ما زلت ممسكة بيد خالتي، حتى وجدتها تشد على يدي بمحبة ثم تتركها وهي تبتسم لي وتربت على كتفي بحنانها المعهود، ثم رأيتها تتلفت يميناً نحو

شاحنة ضخمة قابعة بالقرب من شجرات الكينا مشيرة إلى سائقها بالتقدم. وتقدمت الشاحنة... وفوجئت بشاحنة أُخرى تتقدم تلقائياً من بعدها. وشكرت ربي لأنني لم أطرح السؤال على بوران، إذ كان واضحاً أن أثاث المنزل وكل ما في المنزل بات على ظهر هاتين الشاحنتين.

ليس في استطاعتي حتى بعد مرور كل هذه السنوات أن أصف مشاعري في تلك الساعة أو في ذلك اليوم، وكيف لي أن أنسى تاريخه، فهو التاسع من كانون الثاني/يناير من سنة ١٩٤٨، وهو يصادف ذكرى ميلاد أختي الصغرى جنان. أقفلتُ عليّ باب غرفة النوم وبكيتُ كثيراً... لم أبكِ لأننا سنبقى وحدنا في فلسطين بلا أقرباء، ولم أبك من ألم الفراق، بكيت لأنه ما عاد بإمكاني كبت مشاعري وأنا أسمع بين الحين والحين عن عائلة تغادر، غير أنني شاهدت اليوم بعينيّ كيف غادر أقرب الناس إليّ. وما كان ممكناً لي أن أصدّق كلام أمي من أن رحيل عائلة خالتي ما هو إلاّ رحيل مؤقت بسبب وظيفة العم صبحي الجديدة. كنت أعلم أنها تقول ذلك فقط لتهدئة مخاوفي، لكنها لم تهدأ.

وأذكر أنني سألت أمي بعد أيام: "لو قرر العم صبحي يوماً العودة إلى عمله في المحاماة، فهل سيحملون الأثاث والمكتبة مرة أُخرى ويعودون؟" غير أن أمي لم تجبني، فعرفتُ الجواب.

كانت مفاجأة سارة جداً أن أرى عايدة وبوران، ولم أكن أعلم بزيارتهما لنا في عمّان، وقد جاءتا في ذلك الأحد لزيارتي في رام الله. وسألتني عايدة: "هل تأتين معنا إلى القدس؟" وسألتها بدوري: "أهذا سؤال بحاجة إلى جواب؟"

كانت عايدة تكبرني بسنوات عديدة، فهي مَن كانت في السنوات الأخيرة في مدرسة "شميدت" بينما كنت أنا في السنوات الابتدائية الأولى. وكم من مرة تعمدت أن أستوقفها في الملعب وهي تتمشى مع زميلاتها، فأسألها أي سؤال كان، أو أطلب منها قرشاً أو قرشين لشراء شيء ما من البائع على بوابة المدرسة، ودائماً كانت تحيطني بمحبتها. وأمّا رغبتي الحقيقية من التحدث إليها فهي لم تكن لأنني فعلاً أريد قرشاً أو قرشين، بل لأنه كان يهمني أن تراني زميلاتي إلسي وناديا ووداد وأنا أتحدث معها، وأن يتأكدن من أنها ابنة خالتي، أي أن هناك مَن ألجأ إليها حين نختلف فيما بيننا على مَن تكون البادئة في لعبة الإكس أو لعبة نط الحبل. وأمّا بوران وهي الصغرى بين أخواتها، فكان عمرها يقارب عمر أختي الكبرى نورا، وكانت توليني رعاية خاصة، وكثيراً ما طلبت من أمي أن تأخذني معها لزيارة صديقة لها أو للقيام بنزهة، وكم امتدت تلك النزهات في الشارع التجاري الرئيسي للبقعة التحتا. كنت معجبة بمحلاته التجارية، ومن أكثرها أناقة وجمالاً أذكر متجراً لبيع الكتب والمجلات، وآخر لبيع الأزهار.

المسافة بين رام الله والقدس نحو عشرين دقيقة بالسيارة. سرعان ما نزلنا بالقرب من باب العمود. يا إلهي ما أجمل المكان... مشينا قليلاً ثم وقفنا أمام مدرستنا في مقرها الذي انتقلت إليه بعد النكبة. وأنا قد مررت بقربها مع زميلاتي في الكلية مرات عديدة غير أنني لم أفكر مرة في الدخول والتعريف عن نفسي، كنت أخشى من أن تخونني دموعي وأنا في مكان حبيب إلى قلبي لكن قد لا يعرفني فيه أحد.

سلمى ابنة خالتي الكبرى تخرجت من "كلية شميدت"، وكذلك عايدة، وأمّا بوران فلم تكن قد أنهت الدراسة الثانوية قبل النكبة، لكنها قالت بحزم بأنها متأكدة من أن الراهبات سوف يتذكرنها. قلت: "وماذا عني؟ لن يتذكرني أحد، لكنه يسعدني جداً أنني أنا أتذكر."

كانت بوابة المدرسة مقفلة فقرعنا الجرس، وجاءت بعد قليل راهبة وفتحت لنا الباب وسألتنا عمّا نريد. قالت لها عايدة بأننا من طالبات "شميدت". ابتسمت لنا الراهبة وقادتنا إلى الداخل، وكانت سيستر أنجلينا أول مَن رأتنا، فتهلل وجهها محبة وسعادة وراحت تقول: "أنا سعيدة جداً برؤيتكن جميعاً، أنا سعيدة. طبعاً أنا لا أنسى بنات الخضراء الثلاث وبنات نويهض الثلاث"، وتلفتت نحوي لتقول: "أعتقد أنت كنت

الصغرى وأنا أتذكر أختيك الأكبر منك، لكن... لماذا لا أتذكرك؟ يجب أن أتذكرك...″ وراحت تسألني عن صفي ومعلماتي، وكل هذا ونحن على مدخل المبنى، غير أن الخبر كان قد شاع فجاءت سيستر غيدا وسيستر ريناتا. شعرت وكأننا قد عدنا على بساط سحري سنوات إلى الوراء، فالوجوه نفسها، والراهبات اللواتي عرفتهن في مدرستي الأولى ها هنّ أمامي في هذه اللحظات، وأمّا هذا اللقاء الغني بالمحبة والفرح فكان مفاجأة غير متوقعة.

دُعينا إلى غرفة الاستقبال، وراحت كل من الأخوات الراهبات تروي لنا بأدق التفاصيل كيف استطعن جلب أثاث المدرسة كاملاً والكتب والملفات، وكيف أنهن لم يتركن ورقة واحدة وراءهن. وقالت سيستر أنجلينا بأن الرئيس الأب زونن قام بجهود كثيرة حتى حصل من السلطة الإسرائيلية على الإذن بنقل أثاث المدرسة. وأردفت سيستر غيدا بأنهم احتاجوا إلى أكثر من ستين شاحنة لنقل الأثاث كله وكل ما في المدرسة، غير أنها أبدت أسفها لأنهن اضطررن إلى ترك طاولة كبيرة من الرخام في غرفة الجغرافيا، وذلك لكونها كانت ملتصقة بالأرض، وقد اقترح البعض ضرورة فصلها بأي طريقة وحملها إلى المقر الجديد، غير أن البعض الآخر كان رأيه مختلفاً، وكانت النتيجة أن تلك الطاولة بقيت وحدها في مبنى الصفوف العريق الذي بات فارغاً من أثاثه لكن ليس من ماضيه، فتلك الطاولة الرخامية بقيت لتشهد على أيام جميلة مضت.

بعد عشرات السنين من هذا الحديث وكنّا أصبحنا في أول القرن الواحد والعشرين، أي في زمن الإنترنت وفي عهد ″غوغل″، رحت أقرأ عن المعلم الأول في فلسطين لمادة الجغرافيا، وهو الأستاذ نقولا قطّان من بيت لحم، وصاحب أول كتاب في علم الجغرافيا صدر في القدس، وعنوانه ″جغرافية الشرق الأدنى″. قرأت عن القطّان أيضاً بأنه في مطلع الأربعينيات كان أستاذ الجغرافيا في ″الكلية العربية″ وفي ″مدرسة شميدت للبنات″، فتذكرت حديث سيستر غيدا وقلت لنفسي، لو كنت قابلت الأستاذ قطّان في حياتي لكان سؤالي الأهم له عمّا احتوته غرفة الجغرافيا من معدات وخرائط ووسائل تعليم، ولكنت طلبت منه، أو تمنيت عليه، أن يصف لي الطاولة الرخامية أكثر.

وارتفع الصوت الذي لم أسمعه منذ غادرت مدرستي مرغمة بعد قرار التقسيم، وإذ بها مديرتنا سيستر إيليا تظهر أمامنا وتستولي عليها الدهشة لرؤيتنا وتحيينا بمنتهى المحبة، وتحدثنا بالعربية لا الإنجليزية، وربما كان هذا انطلاقاً من مشاعرها العفوية، وهي مَن كانت الراهبة الوحيدة التي تتكلم العربية كونها لغتها الأم. لكنني حزنت لمّا رأيتها قد ظهر عليها الكبر، كما أنها بدت أقرب إلى النحافة وهي مَن نعرفها ممتلئة الجسم، وكلها حيوية ونشاط.

وسألتني سيستر إيليا:

″كيف حال الوالد؟ نحن اتصلنا به بالتليفون في الأسابيع الأخيرة لأن الأب زونن أراد التحدث معه، لكنه لم يكن هناك رد من أحد لا في البيت ولا في المكتب. من المؤكد أنك لا تذكرين شيئاً عن تلك الأيام، فنحن علمنا أنكن ذهبتن مع الوالدة إلى لبنان.″

وقلت لها:

″مديرتنا الفاضلة... لم يكن هناك مَن يرد في مكتب المحاماة لأنه كان مقفلاً، وأمّا بالنسبة إلى البيت، فأعلم أن والدي كان يقضي معظم الوقت في مكتب أحمد حلمي باشا، المسؤول عن الهيئة العربية العليا، للتشاور والعمل، وكان غالباً ما يأخذ أخي معه، وكان مقر الهيئة في البقعة التحتا لا يبعد كثيراً عن بيتنا. لكنني، سيستر إيليا، يمكنني أن أتذكر شيئاً من تلك الأيام، فأنا أذكر دوماً شيئاً هاماً ولا أنساه، وقد مر ببالي وأنت تتحدثين عن الاتصال الهاتفي، فأنا أذكر رقم تليفون بيتنا، وهو (٤٧٠٢)، ورقم تليفون المكتب، وهو (٥١٥٥).″

ولاحت ابتسامة حزينة على وجه سيستر ريناتا وهي تقول: ″آلام الحروب تتشابه، وهي

في فلسطين كما هي في ألمانيا. كثير منا مَن فقد بيته كلياً بعد الحرب العالمية، وبقي العزاء في الذاكرة، من رقم هاتف ما، أو رقم صندوق بريدي ما." وتلفتت نحوي سيستر أنجلينا وكأنها تمتحنني: "وهل تذكرين رقم صندوق البريد؟" وأجبت بحماس: "نعم، سيستر أنجلينا، كان (٤٢٥)، فأنا مَن كان الوالد يوكل إليها بترتيب رسائله. ومن عادته الاحتفاظ بالمغلف مع الرسالة."

أخذت كل راهبة تدعونا إلى غرفتها كي تحتفل بنا، وكن يقدمن لنا المرطبات ويتبارين في تقديم الحلويات، وكم أسعدنا كرمهن الذي بدا لنا تعبيراً جميلاً عن سعادتهن بالعودة معنا إلى أيام "شميدت" الأولى. وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة حين قالت عايدة: "نتمنى البقاء معكن أكثر، لكن علينا الذهاب الآن ونعد بالمجيء كلما زرنا القدس." غير أن سيستر إيليا قالت: "لا أسمح لكن بالذهاب قبل أن تسلمن على الرئيس الأب زونن."

دخلنا غرفة الرئيس. كان يجلس وراء مكتبه المليء بالكتب والملفات والأوراق، فرفع الراهب الشيخ رأسه ليرانا بينما كانت سيستر أنجلينا تقترب منه لتخبره مَن نحن، فراح يقف ببطء وقد استولت عليه المفاجأة. لم نسمع صوته إذ كان واضحاً أن انفعاله لم يسعفه ليتكلم. ولا أنسى في حياتي رؤيته في ذلك اليوم. رأيت أمامي شيخاً جليلاً يقترب من محطة العمر الأخيرة، غير أنه ما زال يعمل كما عمل طوال حياته منذ أكثر من خمسين عاماً، فالأب زونن جاء إلى فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر إلى طبرية، ومنذ استقراره في مدرسة "شميدت" بالقدس لم يفارقها.

وساد الغرفة سكون. وراحت يداه ترتجفان بشدة وهو يركز نظره أمامه على الطاولة، ونحن لا نعرف حقيقة ماذا يفعل. وتنبهت سيستر أنجلينا الواقفة بقربه فطلبت منه أن تقوم عنه بالمهمة. كان يحاول فتح علبة جديدة مقفلة من البسكوت الألماني الشهير بمذاقه الطيب ليقدمه لنا، هكذا أراد أن يعبّر بكرمه عن ترحيبه بنا. لم يتكلم معنا الأب زونن كلمة واحدة، وأمّا عدم قدرته على الكلام فهو أبلغ دليل على ماضيه العريق، فهل يسهل على شيخ جليل أن يتحدث عن الخوف الذي اعتراه يوماً من نهاية صرح علمي أمضى عمره يعمل على نجاحه وتقدمه؟ مَن قال إن النكبة حدث من الماضي لا يعرف النكبة، فهي حقاً نكبة مستمرة. ومَن تصور أنها نكبة الفلسطينيين وحدهم لا يعرف أن الجهاد الفكري ـ وهو أسمى أنواع الجهاد ـ لا قومية له. الأب زونن كان ألمانياً بالولادة وفلسطينياً بجهده وجهاده الفكري وإيمانه بأهمية تنشئة الأجيال على أرض فلسطين، وهذا ما جعله إنساناً نادراً.

ودعْنا الأب الجليل ومشينا نحو البوابة الخارجية ترافقنا الراهبات. وطوال وجودنا كنت ألاحظ سيستر أنجلينا تراقبني وكأنها تستحث ذاكرتها. وصلنا إلى البوابة، وراحت بوران تروي حكاية طريفة حصلت في مدرستنا، في "شميدت" الأولى، وأذكر أننا جميعاً ضحكنا، ويبدو أنني ضحكت بصوت عالٍ كعادتي، وإذ بنا نفاجأ بسيستر أنجلينا يشرق وجهها وهي تمسك بي من كتفيّ وتقول لي بسرعة: "الآن تذكرتك... الآن... من ضحكتك. نعم. أنت كنت الصغرى بين الأخوات نويهض."

أنا دائماً كنت أبحث عن سر محبتي وعشقي لمدرستي، واكتشفت يوماً دليلاً هاماً على ذلك وأنا في زيارة لصديقتي سالي مكارم في بيروت في نهاية الثمانينيات، وكانت بين الزائرات صديقتها راغدة سعادة، وهي مَن كنت ألتقيها أول مرة. وتشعب الحديث حتى وصلنا إلى الألوان وجمالها والانسجام بينها، وسألتني راغدة: "ما لونك المفضل؟" قلت بحماس: "اللون الكحلي". سألت: "لماذا؟" قلت وقد فاجأني السؤال: "حقيقة... لا أدري." قالت: "لا بد من سبب. تعالي نبحث عن السبب. هل أحببت مدرستك في الصغر؟" قلت: "أحببتها جداً". وعادت تسأل: "يا ترى ماذا كان لون مريول

المدرسة؟" وأجبت: "الكحلي طبعاً مع بلوزة بيضاء." وضحكنا جميعاً لهذا الاكتشاف الذي طال غيابه عني لشدة قربه مني.

وأمّا لو سُئلت عن سبب جوهري وراء سر هذا الحب، فأعتقد أنه الترابط بين حياتي وحياة شعبي والنكبة، فهذه النكبة حرمتني من بيتي ومدرستي ووطني، فعشت والحنين لا يفارقني إلى هذا الثالوث الذي ضاع. غير أنني في زيارتي لمدرستي وما لاقيناه نحن الزائرات من ترحيب الراهبات ومحبتهن الواسعة، عرفت سبباً آخر ينبع من حقيقة الحب المتبادل، فنحن الطالبات لم نكن وحدنا نحب مدرستنا، فالراهبات أيضاً أحببنها بعمق لا يوصف، وكن يغمرننا بحب ما كان ممكناً لي أن أعرف كنهه وأنا طالبة في الصفوف الابتدائية، لكنني عرفته وأنا زائرة. كذلك عرفت أن اهتمام سيستر أنجلينا بي لم يكن أبداً من قبيل المجاملة، بل لكونها من أعماق قلبها تعطي كل اهتمامها للطالبات.

في أواخر سنة ١٩٥٧ توفي الأب الرئيس والمربي الكبير يوحنا زونن وقد تجاوز الثمانين من عمره. رحمه الله رحمة واسعة.

ويبقى في أعماق ذاكرتي لتلك الزيارة في منتصف الخمسينيات المكان الأول، فهي تراودني مع الحنين الدائم إلى الوطن. فنحن الذين عرفنا النكبة وعرفنا معنى الإبعاد عن الوطن، يسعدنا الحديث مع أقرب الناس إلينا ليس فقط عن أهم الذكريات وأغلاها، بل أيضاً عن أبسط ما تركناه وراءنا... عن صورة معلقة على الحائط، أو شجرة في الحديقة، أو بائع إسكيمو في الشارع، وهو مَن كان ينادي بأعلى صوته ويمط الواو حتى يسمعه كل مَن في الحي: "إسكيمو، إسكيمو، إسكيموووو"، وكنا نسمعه ونتراكض لشراء البوظة. وأمّا أروع ما لا يفارقني من تلك الزيارة فهو أنها لم تكن لتختلف بشيء عن اللقاءات ما بين أفراد الأسرة الواحدة، فنحن لم نكن في غرفة الاستقبال أو على بوابة المدرسة مجموعة من راهبات وطالبات قدامى، نحن كنا جماعة من أصحاب تجربة واحدة وهمّ واحد وأمل واحد، وتلك هي الأخوة الصادقة، ولذلك أحببناها كثيراً مدرستنا، فهي لم تكن مكاناً للوعظ والإرشاد والتلقين، كانت مساحة واسعة لا حدود لها للحب والصداقة.

ما بين عام وآخر، كنت ألتقي زميلة لي من أيام القدس، وأتوقف عند واحدة من تلك اللقاءات في أوائل السبعينيات في لبنان، وذلك يوم ذهبت إلى "المدرسة الألمانية" في "الدوحة" [دوحة عرمون] على شاطئ البحر بالقرب من الناعمة، كي أشاهد أولادي الصغار الثلاثة على المنبر في احتفال مدرسي، وكنت قد تعلمت الألمانية في معهد غوتة علّني أتمكن من اللحاق بأولادي. حرصت على الذهاب مبكرة كي أجد مقعداً في الصفوف الأمامية، لا من أجل أن أراهم بشكل أفضل، بل من أجل أن يتمكنوا هم من رؤيتي والاطمئنان إلى أن الماما جاءت.

استرعت انتباهي على المدخل لوحة كبرى للإعلانات المدرسية، وكانت مرتفعة فوق ثلاث درجات، فشدني الفضول لأقرأها وخصوصاً أنني وصلت أبكر ممّا توقعت، فصعدت الدرجات واستغرقت في متعة التعرف على إعلانات شتى يظهر من خلالها تطور الأساليب التربوية. سمعت صوتاً يسألني عن الإعلان الذي كنت أقرأه، فأجبت صاحبة الصوت باقتضاب وأكملت قراءتي، لكنها عادت تطرح السؤال بعد السؤال، فالتفتّ إليها كي أعاتبها وأنا أحاول كبت غضبي، غير أنها فاجأتني بابتسامة هادئة وهي تقول: "الآن تأكدت. أنا عرفتك من صوتك. أنت بيان.. أليس كذلك؟ نحن كنا معاً في مدرسة 'شميدت'. ألا تذكرينني؟ أنا إلسي..." وهتفت: "إلسي... أنت في بيروت وأولادنا في مدرسة واحدة؟." وتعانقنا. وسألتها: "أخبريني... هل يلعب أولادك 'الإكس' بمهارة كما كنت تلعبين؟"

كانت إلسي حداد من الطالبات الداخليات، وهي من الأردن، وقد جاء والدها ليأخذها وشقيقتيها إلى عمّان بمناسبة تتويج الملك عبد الله الذي صادف يوم الخامس والعشرين من

رئيس المدرسة والراهبات والأساتذة والصفوف العليا سنة ١٩٤٧ (كتاب وليد الخالدي "قبل الشتات").

أيار/مايو من سنة ١٩٤٦. وبعد أيام، وبينما نحن في طابور الصباح نستعد للدخول إلى صفوفنا سمعت إحدى المعلمات تسأل معلمة صفنا: "ألم ترجع بنات حداد بعد؟" ولما جاءها الجواب بالنفي عقّبت تلك المعلمة: "لا أفهم لماذا سمحت سيستر إيليا للأب بأخذ بناته والامتحانات على الأبواب، هل ستضع إلسي التاج على رأس الملك؟" استغربت أنا وزميلاتي تهكّمها على صديقتنا، وهي التي لا ننسى فرحتها وهي تودعنا لتشاهد الاحتفالات والزينة في عمّان. ترى... هل شعرت المعلمة بتماديها عندما نجحت إلسي بجدارة؟

ومرّت عقود... فزمن النكبة بالنسبة إلى جيلي يُحسب بالعقود لا بالسنوات، غير أن ذكرياتي عن مدرستي لم تبهت، بل ازدادت حيوية مع الأخبار المتواصلة عن تقدمها وتفوقها في القدس الشرقية، وأيضاً مع الصور النادرة لـ "كلية شميدت" في كتاب وليد الخالدي "قبل الشتات"، وكذلك في "صور غوغل" (google images)، ومن بينها صور ما كنت رأيتها في حياتي، وصور أُخرى كان لدينا مثيلات لها في ألبومات العائلة في بيتنا بالقدس.

الصورة الأقدم عمراً لمدرسة "شميدت" تعود إلى سنة ١٨٨٧، وتظهر فيها بعض الراهبات والرهبان وبعض الطالبات على درج المدخل وفي جانبي الحديقة. ولم تكن المدرسة يومذاك قد عُرفت باسم "شميدت"، كانت لا تزال في عامها الثاني وتُعرف بالمدرسة الألمانية، ولم تكن لتحتل سوى جزء من ذلك المبنى الأثري الرائع من تصميم المهندس المعماري الألماني ثيودور زندل (Theodore Zendel) بالقرب من شارع يافا، وقد تم بناؤه في سنة ١٨٨٦، وكانت واجهة المبنى الكلاسيكية تتميز بالأقواس المدببة على الطراز القوطي الجديد.[٢] وهو من أجمل ما بُني في مدينة القدس، وكان يُستعمل منذ إنشائه نزلاً للحجاج الألمان ومركزاً

للأعمال الخيرية، برعاية المؤسسة الكاثوليكية الألمانية، وهي التي أعطت قسماً من المبنى لتلك المدرسة الألمانية الأولى التي جمعت في صفوفها الصغيرات من بنات الجالية الألمانية والسكان العرب.[٣]

بعد أربع سنوات من إنشاء المدرسة، أي في سنة ١٨٩٠، تولى إدارتها الأب ويلهلم شميدت (Father Wilhelm Schmidt)، وهو مَن كان لسنوات عديدة رئيس الجمعية الألمانية الكاثوليكية في فلسطين، وهو مَن سُمّيت المدرسة باسمه، وهو مَن تمكن من رفع مستوى التعليم فيها حتى أصبحت من أهم المدارس، ولاقت تقديراً واحتراماً وإقبالاً من العائلات المسلمة والمسيحية في القدس.

في صيف ١٨٩٨ زار الإمبراطور ويلهلم (غليوم) الثاني (Wilhelm II) فلسطين، وذلك بعد زيارته الشهيرة للسلطان عبد الحميد في القسطنطينية، وكان الإمبراطور الألماني يخاطب السلطان العثماني بقوله: "يا والدي". وقد أمر السلطان بهدم أعلى السور في باب الخليل من أجل أن يمر موكب الإمبراطور. وبقي الإمبراطور وزوجته أسبوعاً في القدس، وكان من أهم الأماكن التي نالت إعجابه وتشجيعه مدرسة "شميدت"، فقد أبدى سروره لنجاحها وإقبال الأهالي عليها.

بقي الأب شميدت على رأس المدرسة حتى وفاته في سنة ١٩٠٧، فجاء بعده الأب إرنست شميتز (Father Ernst Shmitz)، وهو مَن عمل على تنمية المناهج؛ كذلك كان من الأسباب التي أدت إلى اتساع المدرسة وتطورها انتقال النزل الألماني ومركز الأعمال الخيرية في أوائل القرن العشرين إلى مبنى جديد تم تشييده بالقرب من باب العمود، وهو ما يُعرف باسم بولين هاوس (Pauline Haus)، وهكذا أصبح مبنى المعماري ثيودور زندل الرائع الهندسة والشهير بالمبنى الأثري بتصرف المدرسة. ولم يمضِ وقت طويل على هذا العهد الاستقلالي لمدرسة "شميدت" بالمبنى كاملاً، حتى انتقلت إلى عهد التوسع فتم بناء مبنى آخر مقابل المبنى الأول، وبات المبنى الثاني يُستعمل للتدريس.[٤]

وفي سنة ١٩٢٥ تم بناء طابق ثالث فوق المبنى الأثري، وقام بتصميمه المهندس المعماري هاينريش رينارد (Heinrich Renard)، غير أن أسلوبه، وعلى الرغم من جماله، كان مختلفاً عن أسلوب سلفه زندل، إذ جاء بتفصيلات أقل (وهذا ما يظهر بوضوح في شكل النوافذ)، وقيل إن السبب وراء ذلك هو ضرورة السرعة من أجل إتمام البناء، وهذا ما فرض عليه الاختصار في العمل.[٥]

في الحرب العالمية الأولى لم تقفل مدرسة "شميدت" أبوابها كما أقفلت جميع المدارس المماثلة، ذلك بأن حسن العلاقات بين تركيا وألمانيا أدى إلى السماح لها بالاستمرار على أن تقوم بتدريس اللغة التركية، غير أنها اضطرت إلى الإقفال لثلاث سنوات بعد الحرب الكبرى، أي في عهد الحكم العسكري البريطاني، ثم عادت تفتح أبوابها في سنة ١٩٢١ وتستقطب الطالبات من القدس وسائر المدن الفلسطينية، ثم كان التوقف الذي لا بد منه بسبب النكبة، وهي النكبة التي كانت أول آثارها على القدس، إذ تم احتلال معظم الأحياء العربية في الليلة الأولى، ليلة الرابع عشر والخامس عشر من أيار/مايو، وانتهى عام النكبة باحتلال إسرائيل ثمانين بالمائة من المدينة، وبات هذا القسم الأكبر المحتل يُعرف بالقدس الغربية، وأمّا البلدة القديمة والأحياء العربية المجاورة لها، أي ما تبقّى من القدس، فبات يُعرف بالقدس الشرقية.

في إطار هذا التقسيم أضحت "كلية شميدت" في شارع هلّيل (Hillel Street) في القدس الغربية، فكان قرار الرئيس الأب زونن بالانتقال إلى القدس الشرقية، ذلك بأن معظم الطالبات يأتين من القدس الشرقية والضفة الغربية، وأمّا الطالبات من "القدس الغربية" فكان معظمهن قد اضطر إلى الهجرة مع أهاليه ولم يتمكن من العودة بسبب الاحتلال. وبعد صعوبات جمّة تمكّن الأب زونن والرهبان والراهبات من نقل

أثاث المدرسة كاملاً مع جميع المستندات والكتب والأوراق، وهذا ما حدثتنا عنه الأخوات الراهبات أعلاه.

أعيد فتح "كلية شميدت" في تشرين الأول/أكتوبر من سنة ١٩٥١ في مبنى بولين هاوس، المبنى الذي كان الألمان قد ابتنوه في مطلع القرن العشرين بالقرب من باب العمود، وكانت عودة التلميذات إلى مدرستهن والإقبال الجديد عليها يزداد عاماً فعاماً، حتى إنه بعد ثلاث سنوات فقط ارتفع عدد الطالبات إلى نحو أربعمائة طالبة، وهكذا وصلت المدرسة إلى مستواها قبل النكبة.

صمدت مدرسة "شميدت" إزاء كثير من المصاعب العامة والمصاعب التي عانت منها القدس بشكل خاص، ومع كل الصعوبات فهي اتخذت قرارها في سنة ١٩٦٢ بإنشاء مبنى جديد يتسع لأعداد الطالبات المتزايدة، وابتدأ البناء، إلاّ إن الحفريات التي كانت الحكومة الإسرائيلية تقوم بها أوقفت عملية البناء، وهذا ما كان مدعاة للتأخير، غير أن البناء عاد واكتمل وافتُتحت المدرسة في بنائها الجديد على طريق نابلس في ١٤ أيار/مايو من سنة ١٩٦٧.[٦] وما كان أحد بقادر على التكهن يومذاك بأن هناك حرباً حزيرانية قادمة بعد اثنين وعشرين يوماً، وأنها سوف تبتلع كل فلسطين، وأنها سوف تنافس النكبة في آلامها ونتائجها. أليست هي ما أطلق عليها العرب حرب النكسة؟

تابعتُ أخبار الأخوات الراهبات الألمان وعلمت أن بعضاً منهن انتقل في السبعينيات إلى المدرسة الألمانية في باب اللوق بالقاهرة، ثم أدى تطور الأوضاع السياسية والإدارية في القدس بدءاً من القرار الإسرائيلي بضم القدس في سنة ١٩٨٠، إلى أن تودّع الراهبات مدرستهن الغالية وداعاً هو أشبه بالوداع التدريجي، وهكذا أصبحت إدارة "كلية شميدت" إدارة مدنية ألمانية.

القدس مدينة شهيرة بمدارسها، ومن أحدث الكتب عن مدارس القدس كتاب سميّة الخالدي، وهو يتميز بشروحات عن المدارس في القدس من العهد المملوكي إلى عهد الانتداب، وكذلك بمجموعة من الصور تنبئ الواحدة منها عن روعة البناء وعراقة المدرسة، والصورة المختارة لمدرسة "شميدت" هي صورة موقعها الثاني في باب العمود، وتقول الخالدي في الخاتمة: ".... في مساحة تقارب الكيلومتر المربع الواحد بُنيت عشرات المدارس ودور العلم المختلفة بشكل يفوق في هندستها أبنية في مدن أُخرى وهي غير قابلة للطمس أو التجاوز مهما بلغت قوة الآخرين...."[٧]

ليس من شك في أن الأحداث التي عصفت بتاريخ القدس منذ كانت النكبة تركت آثارها على مدارسها ومشت بها نحو نهايات متعددة، فمنها ما اضطر إلى الإقفال، ومنها ما استمر على الرغم من جميع الصعوبات وتمكّن من الانتقال إلى القدس الشرقية، ومنها ما كان موقعه أصلاً في القدس الشرقية. ومن أهم الدلائل على عظمة المدينة وحبّ الجميع لها هو المرجعيات المتعددة التي تقف وراء مدارسها، ففي القدس نجد المدارس ذات المرجعيات الدينية المتعددة من إسلامية ومسيحية، ومن محلية وأجنبية، ومنها المدارس غير الدينية، ومنها المدارس الرسمية وفقاً لاختلاف العهود، ومنها المدارس التابعة لوكالة الغوث الدولية، ومنها المدارس الخاصة. غير أن التوقف لا بد منه إزاء مدرستين أو مؤسستين تحديداً، انبثقت كل منهما من قلب الأحداث الدامية.

هند طاهر الحسيني هي التي انطلقت بمشروعها منذ سنة ١٩٤٨ وأطلقت عليه "دار الطفل العربي"، من أجل رعاية أطفال دير ياسين وسواهم من الصغار الذين فقدوا ذويهم في خلال المعارك والمآسي المتلاحقة، فهي مَن شاهدت مجموعة من هؤلاء الأطفال يكاد يقضي عليهم الجوع والخوف والألم، فاحتضنتهم وأنشأت تلك "الدار" التي كبرت مع الزمن وأصبحت مؤسسة تُعنى بالإنسان كما تُعنى بالعلم والفن والآداب. وإليزابيث ناصر هي مَن استرعى انتباهها

ومشاعرها منظر الفتيات البائسات اللواتي كن يتسولن في شوارع القدس في مطلع الخمسينيات، فقامت بمشروعها الإنساني لتجمع هؤلاء الصغيرات في مؤسسة خاصة أطلقت عليها "روضة الزهور"، وكبرت المؤسسة وتحولت إلى مدرسة تعتز بها القدس. وهاتان السيدتان رمز لشجاعة المرأة الفلسطينية وصلابتها وإنسانيتها.

وصفت هند الحسيني مؤسستها بعد عامين من نشأتها: "... بدأتْ [دار الطفل العربي] بثلاثين طفلاً من أيتام دير ياسين في غرفتين متواضعتين في عمارة في البلدة القديمة، بمبلغ لم يتجاوز المائتي جنيه، ترعاهم مربية واحدة فقط. وبعد مضي أشهر قلائل توسعت الدار وأصبحت تضم سبعين طفلاً وطفلة، بعد أن تمكنت من الاستيلاء على العمارة بأجمعها. ولكن هذه العمارة وهذا التوسع البسيط لم يوصلا دار الطفل إلى هدفها. فالعمارة إلى جانب ضيقها، كانت في ركن مظلم، حيث الرطوبة التي تتلف أجسام الأطفال الأبرياء...."[٨]

في منتصف الخمسينيات، ويوم كانت دار الطفل العربي في عامها السابع، قمت بزيارتها بتوجيه من الأستاذة لبيبة صلاح، وهي أستاذتي في علم التربية في دار المعلمات، وما كان أسهل الوصول يومذاك من رام الله إلى القدس. وجدت الدار في عمارتين جميلتين متجاورتين خارج البلدة القديمة، وقالت لي هند الحسيني بأن الانتقال تم في أقل من عام بعد إنشائها، وسرعان ما أصبح للأطفال ملاعب وحدائق صغيرة وحرش يعلو فيه شجر الصنوبر، وهكذا انتهت مشكلة الرطوبة، غير أن المشكلة المستعصية التي احتاجت إلى سنوات لعلاجها هي صراخ الصغار في منتصف الليالي من كوابيس الرعب، ففي معظم الليالي كان أحدهم أو بعضهم يستيقظ وهو يصرخ منادياً أمه... وكانت السيدة هند تتحدث وحزن شفاف يغلف صوتها لكنها سرعان ما تسترد بسمتها وأملها وتتحدث بحماسة عن مستقبل الصغار.

بعد أن قرأت الأستاذة لبيبة صلاح موضوعي عن "دار الطفل العربي" دعتني إلى مكتبها وقالت لي: "هذا الموضوع أبكاني... غير أنني أنتظر منك الموضوع الذي حدثتني عنه في الشهر الماضي." استغربت كلامها وقلت: "أي موضوع هو ذاك؟" وابتسمت تقول: "ألا تنوين الكتابة عن زيارتك لمدرستك شميدت؟" "نعم... أخبرتك أستاذتي عن تلك الزيارة، لكنها زيارة خاصة." وقالت: "وهل من حدود بين الخاص والعام حين تكون القدس هي ملتقى المكان والزمان والإنسان؟"... وقلت بصوت خافت: "أعدك بأنني سأحاول."

مر أكثر من ستين عاماً على زيارتي تلك لمدرستي. جلست مع كمبيوتري أستودعه مشاعري وحبي الكبير وذاكرتي، ولا أعني بها وحدها ذاكرتي من الأعماق كما اعتدنا أن نقول، بل ذاكرتي من أجنحتها أيضاً، حيث الذاكرة من تلقاء نفسها تبحث عن مساحة من الهواء والحرية كي تعبّر عن ذاتها.

لدى مراجعتي الأخيرة لهذه الصفحات توقفت عند العنوان، ورحت أحاسب نفسي وأتساءل: ألا يحق لطالبة من مدرسة أُخرى أن تقول إن مدرستها هي "زهرة المدارس"؟ وأجبت نفسي بأنه حتماً يحق لها، غير أن عاطفتي لم تكن وحدها هي التي أملت عليّ العنوان، حتى ذاكرتي وحدها ما اكتفيت بها، بل بحثت أيضاً عن تاريخ مدرستي، وهو تاريخ يشهد لها. وهكذا عدت أكتب من جديد هذه الخاتمة أدناه.

مدرسة "شميدت" كانت أول مدرسة أُنشئت للبنات في مدينة القدس، وذلك في العهد العثماني في سنة ١٨٨٦، وهذا أولاً؛ صرفت اهتمامها من البدايات نحو التقدم العلمي، واشتهرت منذ العقد الأول من القرن العشرين بتقدمها في العلوم الطبيعة وتطوير مكتبتها، ثانياً؛ كانت أول مدرسة تُعنى بتدريس التربية وأصول التعليم، فقامت بتخريج المعلمات لمدارس فلسطين منذ العقد الثاني، أي منذ أكثر من قرن من الزمان، ثالثاً؛ لم تتوقف إلاّ في الأحداث الصعبة جداً مرتين، الأولى في أيام

الحكم العسكري البريطاني والثانية في أيام النكبة، ولم يتجاوز توقفها في كل مرة الثلاثة أعوام، رابعاً؛ تُعتبر المدرسة اليوم من أبرز المدارس الطليعية بالقدس، خامساً؛ تتيح لطالباتها التقدم إلى أكثر من شهادة، منها الشهادة التوجيهية العربية، وشهادة G. C. E. الإنجليزية، وشهادة "الأبيتور" الألمانية (Abitour)، سادساً؛ برز تفوق طالباتها في الجامعات الفلسطينية فأشارت الإحصاءات إلى أنه من نحو خمسة عشر ألف خريج من الجامعات الفلسطينية في الثمانينيات، كان بين العشرة الأوائل من الطالبات المتفوقات خمس من طالبات "شميدت"، سابعاً؛ يتميز موقعها الإلكتروني بالصور والفيديوهات لطالباتها وهن يمارسن شتى أنواع النشاطات العلمية والفنية والرياضية بكفاءة وبراعة، ثامناً؛ "شميدت" مؤسسة علمية ذات رسالة إنسانية عالمية، وسواء أكانت في عهد الآباء الرؤساء الأوائل أو في العهود اللاحقة حتى يومنا هذا، تاسعاً؛ ويبقى أخيراً ما كان يجب أن يكون أولاً، وهو أن "كلية شميدت للبنات" الكاثوليكية رمز من رموز حرية المعتقدات الدينية والتسامح الديني، عاشراً.

اليوم وأنا أكتب هذه الخواطر في سنة ٢٠١٧، يكون قد مضى على قرار التقسيم وحرماني من مدينتي وبيتي ومدرستي سبعون عاماً، فسلام عليك يا مدرستي، وسلام لك من جميع طالباتك، مهما باعدت بيننا الأزمان، ومهما ارتفعت الجدران، ومهما امتلأت طرقاتك بالحواجز، فالقدس تبقى عاصمة الأديان. ■

المصادر

١ لغة التخاطب والألقاب مع الهيئة التعليمية والإدارية الألمانية كانت باللغة الإنجليزية، والإبقاء على الألقاب بالإنجليزية في النص، سواء مع الراهبات أو المعلمات، الغرض منه الإبقاء على أجواء المرحلة.

٢ U. Nahon Museum of Italian Jewish Art, "The Story of the Italian Synagogue", http://www.ijamuseum.org

٣ Schmidt–Schule Jerusalem, "Aspects of the History of the Schmidt School Jerusalem", <http//www.schmidtschule.schule>

٤ Ibid.

٥ U. Nahon Museum of Italian Jewish Art, op.cit.

٦ Schmidt–Schule Jerusalem, op.cit.

٧ سمية محيي الدين الخالدي (إعداد وتقديم)، "مدارس القدس من العهد المملوكي إلى الانتداب البريطاني" (القدس: مطبعة الرسالة، ٢٠١٦)، ص ٤٦.

٨ مؤسسة دار الطفل العربي بالقدس، "البيان السنوي ١٩٤٩ – ١٩٥٠"، ص ٧.